

الحصة الثالثة: أبرز المدونات القانونية في حضارات الغرب القديمة

وصلت بعض بلدان الغرب مرحلة تدوين القانون منذ منتصف الألف الأولى قبل الميلاد (أي بعد اكتشاف الشرق للكتابة بآلاف السنين)، لاسيما أقدم الشعوب كالإغريق والرومان، أما باقي شعوب أوروبا فلم يصلوا هذه المرحلة إلا في منتصف الألف الموالية للميلاد.

وسنبين فيما يلي، أهم المدونات القانونية عند الإغريق (أ) والرومان (ب).

أ- نموذجين من القانون الإغريقي

عرف الإغريق (اليونان) تطورا على مستوى البنية القانونية والمؤسسية، انعكس بشكل كبير ومباشر على الفكر الإنساني، ولازال أثره واضحا على عدة مجالات في حياتنا المعاصرة، كالفلسفة والآداب والسياسة والحكم والإدارة¹.

وسنركز في هذا الإطار على نموذجين قانونيين بارزين من تلك الحقبة، وهما مدونة دراكون (أ) ومدونة صولون (ب).

أ-1 - مدونة دراكون

صدرت هذه المدونة في أثينا في عهد حاكمها دراكون حوالي 621 ق.م، بغرض تدوين الأعراف والنظم القانونية، وذلك بناء على مطلب طبقة العامة التي احتدم الصراع بينها وبين طبقة الأشراف، بسبب احتكار الطبقة الأخيرة لعلم القانون وتفسيره وتطبيقه².

وقد أصدر دراكون مدونته التي حملت اسمه بقصد الإصلاح الاجتماعي؛ وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لمدونة دراكون، التي خيبت آمال الطبقة المتوسطة، إلا أنها تتميز بالعديد من المظاهر الايجابية³، نذكر منها:

1Godfridi (Drieu) : « Arbitraire et droit dans l'Athènes antique » ; éd.luc pire 2009, p : 3.

2طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: حضارة وادي النيل- الإغريق- الرومان، الجزء الثاني، دار الوراق للنشر المحدودة بغداد، ط الأولى 2011، ص: 657.

3Homant (Ysaline): « Dracon introduit la démocratie à Athènes » ; p : 67. Version électronique disponible sur : www.herodote.net

- مدونة دراكون تعد مظهرا من مظاهر الديمقراطية الإغريقية: حيث تُعد مدونة مدنية، لأن دراكون كان يتكلم باسم الشعب وليس باسم الآلهة.
 - المدونة نقلت القانون في أثينا إلى مرحلة التدوين.
 - مدونة اشتهرت بالإفراط في القسوة الموروثة من تقاليد عصر القوة.
 - مدونة توسعت في مفهوم الجرائم العامة: حيث عملت على تقوية سلطات الدولة من خلال تحويل الجرائم الخاصة إلى جرائم عامة، وبالتالي إلغاء حق الانتقام الفردي، ولم يترك للأفراد سوى الحق في التصالح في الجرائم التي يجوز فيها الصلح.
 - مدونة اهتمت بالقصد الجنائي في مجال التجريم والعقاب.
 - مدونة اعتمدت مبدأ لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص.
 - مدونة أعطت السلطات القضائية للدولة: فقد عمل دراكون من خلالها على نقل السلطات القضائية للدولة، ولم يبق من النظام القضائي القديم سوى سلطة الأب على أولاده. وقد عمد دراكون إلى تنظيم مرفق القضاء، فأنشأ محكمتين أحدهما تختص بنظر جرائم القتل والحرائق والجرائم الخطيرة، والأخرى تختص بنظر باقي الجرائم التي ليست من اختصاص الأولى.
 - مدونة أقرت مشاركة طبقة العامة في شؤون الحكم.
 - نصت المدونة على التفرقة الطبقيّة: وذلك بتقسيم المجتمع إلى أربع طبقات: الأشراف، الوسطى، العامة وطبقة الرقيق⁴.
- وخلاصة القول كانت مدونة دراكون بمثابة خطوة على طريق الإصلاح الاجتماعي، غير أنها لم تحقق الغرض المنشود منها، وهو إقامة المساواة التامة بين جميع أفراد المجتمع⁵، مما يسر السبيل إلى صدور مدونة صولون.

⁴Lacore (Michelle): « le législateur et la Loi dans l'antiquité » ; op-cite p : 37.

⁵Allorant (Pierre) et Tanchoux (philippe) : « Introduction historique au droit » ; 8^{ème}éd ,Gualino-Lextenso 2020, p : 30.

أ-2- مدونة صولون

يعتبر صولون أهم وأشهر حكام ومشرعي أثينا القديمة، والمتأمل في تاريخ صدور مدونته (عام 594 ق.م) يجد أنها ظهرت عقب صدور مدونة دراكون بحوالي عشرين عاما، الأمر الذي يفهم منه أن هذه الأخيرة لم تعمر طويلا، لأنها لم تحقق مطالب طبقة العامة وتطلعاتهم.

أما عن مضمون المدونة، فقد شملت على مجموعة من الإصلاحات في شتى مناحي الحياة؛ فقد بدأ صولون إصلاحاته بإصدار عفو عام عن المنفيين السياسيين، ثم توالى إصلاحاته الأخرى في مختلف المجالات: سواء الاجتماعية أو القضائية أو الاقتصادية أو السياسية وسنعرض لأهم هذه الإصلاحات⁶:

الإصلاحات الاجتماعية:

- تعديل نظام الإرث: ألغى صولون القاعدة التي كانت تحصر الإرث في الابن الأكبر.
- حق الإيصاء: أجازت المدونة للشخص أن يوصى بماله، إذا لم يكن له أولادا ذكورا.
- تهذيب نظام السلطة الأبوية: لم يعد للأب صاحب هذه السلطة الحق في قتل أو بيع أولاده.
- حث أفراد الشعب على العمل.
- إلغاء الديون القديمة: ألغى صولون الديون القديمة التي كانت ترهق عاتق المدينين سواء كانت لصالح الأفراد أو لصالح المدينة.
- إلغاء الإكراه البدني: كان نظام الإكراه البدني من الأنظمة التي كانت معروفة في غالبية المجتمعات القديمة، ومنها المجتمع الأثيني، وبموجب هذا النظام كان يحق للدائن أن يسترق مدينه، وقد ظل هذا النظام جائزا إلى أن جاء صولون مقررًا إلغاؤه .

⁶Delfim (Ferrera- léo) : « Paidothrophia et Gérothrophia dans les lois de solon » ; Article in R.H.D.F.E ; Jan 2011, p :18.

الإصلاحات القضائية:

- إنشاء المحاكم الشعبية.
- تقرير دعوى الحسبة: اعتبر صولون الدعوى الجنائية من دعاوى الحسبة، وبالتالي أصبح من حق أي مواطن أن يرفع هذه الدعوى دون اشتراط ركن المصلحة في الدعوى.
- تحويل حق الشعب في انتخاب القضاة.
- تشكيل المحاكم من قضاة يمثلون جميع طبقات الشعب ماعدا طبقة الأرقاء.
- فتح الطريق أمام الكافة للطعن على أحكام القضاء.
- إقرار مبدأ المساواة أمام المحاكم.

أهم الإصلاحات الاقتصادية:

- فرض ضريبة تصاعدية بحسب ارتفاع درجة الثراء.
- تعديل المقاييس والموازن بهدف حماية التجار والصناع.
- تخفيض وزن عملة أثينا: وذلك بهدف تخفيض أعباء الديون.
- تحريم الربا الفاحش: حدد صولون سعر الفائدة بوضع حد أقصى لهذا السعر، كما حرم الإقراض بفائدة مغالى فيها.
- إلغاء رهن الأرض: التي تقرررت على العقارات من الأراضي المملوكة لصغار الفلاحين.
- وضع حد أقصى لملكية الأراضي: حدد صولون مساحة الأراضي الزراعية التي يجوز لكل فرد تملكها. وقد أسفر هذا التحديد عن تملك صغار الفلاحين للأراضي، ومن ثم تحسنت حالتهم الاقتصادية.

أهم الإصلاحات السياسية:

- إشراك طبقة العامة في شؤون الحكم: أقر صولون مبدأ المساواة بين كافة الطبقات، مقررًا منع احتكار طبقة الأشراف للمناصب العامة، ومن ثم أصبح للعامة حق تقلد المناصب⁷.
- إلغاء القوانين القديمة، وعلى رأسها قانون دراكون.
- منح جميع السكان حق المواطنة: وبالتالي أصبح لجميع الأفراد الحق في ممارسة كافة الحقوق التي تنفرع عن هذا الحق الرئيسي.

Wéry (Louise-Marie) : « la perspective éleusinienne dans la politique de solon » ; Diffusion librairie 7 DROZ , Genève 1996, p : 387.